القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

والآن وقد وصلنا الى معالجة المذاهب السياسية الحديثة التي لها اتصال وثيق بالجيل الذي نعيش فيه فقد رأينا اختصاراً للوقت وجمعاً لشمل الموضوع المتشعب وتسهيلاً على القارىء ان نكون اكثر تقيداً بالخلاصة البديعة التي نشرها الاستاذ (كول) في « موجز المعارف الحاضرة » الا حيث تلجئنا الضرورة الى ذكر ما لا محيد عن ذكره

﴿ هيجل وماركس ﴾ : بينما كان (جرمي بنثم) يؤيد مذهبه الفردي في بريطانيا ويقول باعطاء اكبر قسط من السعادة لاكثر عدد من الافراد كان (هيجل) الفيلسوف الالماني المتوفى سنة ١٨٣١ ينشر في القارة الاوربية مذهبهُ وهو ينطوي على تمجيد سلطان الدولة وحمل الفرد على أن يحقق وجوده وينشد سعادته ليس في مصلحته الفردية فقط بل فيما يبذلهُ للمصلحة العامة من المساعي في الدولة وهو الاهم . وفي نظر (هيجل) ان الدولة سرّ الاسرار وقدس الاقداس يجد الناس فيها اطايب الحياة ويحققون اسمى الغايات لا غرو انهُ الحقّ في القول بوحدتها واطلاق يدها والخضوع لمشيئتها مما يؤيد النظام الاستبدادي الاوتوقراطي ، ولما ذكر اختلاف مواهب الناس فيما لهم من طاقة على خدمة الدولة ايّد الطبقاتية لانها ناشئة كما ذكرنا على ما تدعيهِ من ميزات تميزها عن سائر الخلق وتجعلها اهلاً للتحلي بادارة الدفة السياسية. وعنده ان الحكم على اهلية الدولة يتوقف على مقدار قوتها فهو والحالة هذه يمجد الحرب مؤيد للبسطة السياسية باعتبارها وسيلتين تتوسل بهما الدولة لتحقيق وجودها . ولما كانت الدولة في فلسفته هي ثمن مشروع اخرجه الناس الى حيز الفعل فلا بدع ان هزأ بنظريه « تآخي الناس » وضحك من القول بتأليف « الاسرة البشرية » على سطح الارض . وانّى لهُ مثل هذه العاطفة وعندهُ أن الدولة الواحدة معنوفة في وجه الدولة الاخرى صفّ الجيوش المتبارزة القتال

اما مذهبهُ في الارتقاء فيلخّص في قوله ان الاصل في الاشياء هو « الفكرة » وان المادة انما هي صورة منعكسة عنها ويتم الارتقاء بتحقيق هذه « الفكرة » بصورة تدريجية طريقتها ان يحصل تنازع في كل مرحلة بين الفكرة السائدة المتغلبة والفكرة التي تناقضها الى ان

تتولد من هذا الخصام بين الفكرتين مزيج من القديم والحديث — يعني الى ان تتولد فكرة جديدة من ازدواجهما معاً تتفوق عليهما كليهما ولكنها محكوم عليها بالانهزام ايضاً امام ما يستجد من الافكار بطريقة هذا التنازع بين الافكار المتناقضة

﴿كارل ماركس﴾ استعار كارل ماركس وسول الاشتراكية هذه النظرة التشوئية الدرجية ولكنهُ عكسها رأساً على عقب فهو لم يعتدَّ « بالفكرة » ولا حسبها اصل الاشياء كما فعل (هيجل) بل قال ان العامل المؤثر في التشوء الاجتماعي هو (القوى المادية المنتجة) التي تتجهز بها الجمعية البشرية — يعني ان ينابيع الثروة التي يستخدمها الانسان من اراض وآلات واجهزة ... كل ذلك يكسب الناس شكل الحياة الاجتماعية التي يتمتعون بها فتكون الافكار المنتشرة بينهم نتيجة ما هم عليهِ من الطرائق الانتاجية التي توصلوا اليها ، فاذا كانت هذه الطرائق راقية دقيقة التركيب وكثيرة المحصول فالحياة الاجتماعية راقية على نسبتها والعكس بالعكس . فلا عجب ان تكون البلاد الصناعية ارقى من البلاد الزراعية وهذه ارقى من بلاد المراعي . والخلاصة ان (ماركس) يقول ان وسائل الانتاج في المجتمع وما ينبني عليها من العلاقات بين الناس تؤلف النظام الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية وهذا النظام هو العامل الاساسي في تكوين النشوء العقلي في الشعوب . فهيجل كما ترى ابتدأ بالعقل و جعل المادة صورة منعكسة عنهُ . ويدعى مذهب ماركس في الفلسفة « التحليل المادي للتاريخ » وقد أبان فيهِ الاطوار التي مرَّ عليها المجتمع منذ ما استولى على شؤونهِ اصحاب الاراضي الواسعة الى ان هبت الثورة الصناعية والتجارية فانتزعت الشيء الكثير من سلطتهم وانتهت الحال باندماجهما معاً في ادارة الحكم ، ثم شبَّت الرأسمالية الصناعية وعملت جهدها لاستثمار ينابيع الثروة في الشعب مما حملها على حشر الالوف المؤلفة من العمال في المصانع وتدريبهم على النظام العملي المنتج. لكن عملها هذا اتاح لهم من القوة والفرصة ما ينظمون بهِ انفسهم في وجه اسيادهم الذين استخدموهم ، والخلاصة ان اضطرار الرأسمالية الى انفاق مجهودها للحصول على اعظم الارباح ادَّى الى نهضة العمال وانتشار مذهبهم الاشتراكي وما ينطوي عليهِ من تهديد يقض مضاجع الرأسماليين ودعاويهم الطويلة العريضة . وقد تنبأ ماركس عن العمال بقوله ان هذه الطبقة الخاضعة التي لا يحق لاحد ان يمنعها من تنظيم نفسها او يحول دون صيحاتها العالية بالاحتجاج ستثلُّ عروش الرأسماليين وتقضي على رأس المال باعتباره نظاماً اقتصادياً تعيش تحت لوائهِ الشعوب . وستفعل ذلك لانها على قوله اصلح من الرأسماليين في استثمار ينابيع الثروة واستخراج خيراتها، وبتغلب هؤلاء « الصعاليك » او « المساكين » لا تبقى ثمة طبقة مأكلة لغيرها، ومتى تألف المجتمع الخالي من الطبقات يزول الاستثمار وتزول سمة حكومة الطبقة لتحل محلها الادارة المشتركة العامة التي تدير ينابيع الثروة في الشعب لمصلحة الجميع . وعلى العمال

ليس فقط ان يقبضوا على زمام الحكومة الحاضرة ويستخدموها لغايتهم بل ان يحققوها حتماً هي والطبقة الاقتصادية المسيطرة عليها ويحلوا محلهم نظاماً يؤسسونه من جديد. وهنا تبتدئ الاختلافات بين الاشتراكيين فكل حزب منهم يولي وجهه شطرَ — يعني ان اتفاق كلمتهم على ضرورة محق حكومة الطبقات تتفكك عراها حالما يبحثون عن النظام الجديد الذي يجب ان يحل محلها وكيف يجب ان يتم التغيير، فللاشتراكيين الديموقراطيين رأي سلمي تدرجي يتحقق بواسطة الانتخابات النيابية وللشيوعيين رأي انقلابي قائم على الثورة العالمية

ولد (كارل ماركس) في مدينة (تريز) بالمانيا في سنة ١٨١٨ ودرس الفلسفة والحقوق في مدينتي (بون) و(برلين) ونال شهادة الدكتوراه في (يينا) سنة ١٨٤١ وقد اضطهدته بلاده من غير أن تعرف ما سيكون من أمره حتى اضطر الى الهجرة منها فاجتمع في (باريز) بأهم أصدقائه (انجلس) وفي سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي امتازت بظهور كتاب « أصل الانواع » لداروين نشر ماركس كتابه « الذيل لنقد الاقتصاد » وقدر لكل من هذين الكتابين احداث ثورة في دائرته : ذاك في علم الحياة وهذا في علم الثروة العمومية. وبعد «البيان الشيوعي» الذي نشره ماركس بالالمانية في سنة ١٨٤٨ — وهو في خمس وعشرين صفحة — اول نص عالج الاشتراكية بطريقة علمية واضحة واخرجها من صف الفلسفة الخيالية والاحلام الذهبية ، وقد ختمهُ بالوعيد المشهور: فلترتعش فرائص الطبقات الحاكمة عند شبوب الثورة الشيوعية. اما الصعاليك فليس لديهم ما يخسرون سوى السلاسل والاغلال ولكن امامهم دنيا يربحونها. اتحدوا اليها العمال في الآفاق

﴿ مذهب النشوء والاوضاع السياسية ﴾ عرضنا لداروين وأشرنا الى الثورة التي أحدثها مذهبه في علم الحياة وظن الناس لاول وهلة ان مذهب النشوء سيحل معضلة السياسة ولكن نظرة واحدة في المذاهب المتباينة التي قالها أئمة هذا المذهب تدل على خطأ أهل هذا الظن فسبنسر غالى في « الفردية » كما غالى (جرمي بنثم) من قبله ، ومعظم النشوئيين السابقين نظروا الى المجتمع وحدة او كتلة عضوية أكثر منه وحدة تنسابية اجتماعية. ولهم سبنسر منهم خاصة بتنازع البقاء بين الناس فلا عجب ان يتصور الجمعية البشرية مبدأ يتصارع فيه الافراد فلا تكتب السلامة فيه الا للاصلح او الاقوى ولكن زميله (توماس هكسلي) عدَّ المجتمع أداة مستحدثة في التدرج العضوي قاومت الميول الموروثة بالتشريع وحسبه من ان يطأ الافراد بقدميه التناسيتين من غير رحمة ولا شفقة . لذلك كانت وظيفة هذه الاداة الاجتماعية المستحدثة الاشراف والتنظيم والتدخل لتحويل الجمعية البشرية من دغل موحش الى حديقة غناء . اما (البرنس كروبوتكين) الروسي وهو من اعلام النشوئيين المتأخرين فقد خطا في هذا المضمار خطوة اوسع اذ حاول في كتابه «التعاون» ان يستخرج للاشتراكية اساساً مما تقتضيه الضرورة الحيوية البيولوجية من التعاون بين الناس كما بين الحيوانات . وتمسك غيره بالقول

ان المجتمع جسم عضوي ذو دماغ هو الحكومة فالواجب ان تخضع سائر الاعضاء لسلطة هذا الدماغ. وتدل الدلائل على ان هذه الطريقة النشوئية الاشتراكية التي قال بها البرنس كروبوتكن كانت أشد نفوذاً في أثرها من الطريقة الفردية التي تمسك بها سبنسر واخوانه

على ان الاسترسال في التشابه الحيوي بين المجتمع والجسم العضوي واغفال شأن العامل النفساني في جمع البشر وضم بعضهم الى بعض جعل مذهب النشوء قليل الفائدة . ولا مراء ان الطبيعة العلمية في أهل التحقيق تمل الخيالات والاستنباطات المتطرفة خصوصاً ما بني منها على التشابه السطحي . لا جرم ان العلماء طرقوا باباً جديداً لدرس المجتمع اساسه درس الحالة الراهنة وتصنيف الاوضاع البشرية ومقارنتها بعضها ببعض ودرس بناء العقل الانساني وفهم الطريقة التي يسير عليها

﴿السياسة وعلم الانسان والنفس﴾ لقد زوّدنا درس الاوضاع الاجتماعية الماضية والحاضرة منذ الانسان الاول الى اليوم بمعلومات نفيسة ، وكان لعلم الانسان في هذا المضمار النصيب الاوفر فانكشفت لنا عقلية الشعوب الفطرية ذات المدنية الابتدائية وظهرت نظمها الاجتماعية مما أهاب بعلماء السياسة المتأخرين الى الابتعاد عن الطريقة المنطقية والالتزامات العقلية النظرية في معالجة مثل هذه الشؤون وحدا بهم الى الاعتماد على «الحالة الراهنة» التي نجد عليها هذه الاوضاع سواء في الشعوب الراقية أم الشعوب الابتدائية . وان هذا الميل الى الامر الواقع استرجح حالاً بالملاحظات المتوفرة من درس النفس على هذه الطريقة الراهنة أيضاً التي لا شأن للتحكم العقلي فيها . وكان من نتائج هذا الدرس العلمي ان أصبح العلماء في شك (اولاً) من كل جواب يزعم أصحابه انه مقنع في الردّ على السؤال: «ما هو الشكل الصحيح العام الذي يتخذه التنظيم الاجتماعي بقطع النظر عن الزمان والمكان ؟» (ثانياً) من كل محاولة لفهم القضية السياسية على الطريقة العقلية المجردة . ولا يعني هذا الكلام ان علماء النفس والانسان طلّقوا العقل بتاتاً في هذه الدروس بل ان بعضاً منهم كالاستاذ (ولاس) العالم المشهور هم من أهل المنطق البحت لانهم رأوا في اشراف العقل على الحياة الاجتماعية اوضح علامة على ارتقاء المدنية والامل الاكبر المعوّل عليه في النجاة . ومع كل هذا الاعتماد على العقل في ترتيب العلاج ومقاومة المرض فقد حتّم المباحث الجديدة التي ذكرناها على النظر الى سير العمل في المجتمع البشري القديم والحديث بعين اقل احتفالاً بالمعقول والمنطق واكثر اعتماداً بالجزء اللاعقلي او الكيفي في البشر باعتباره عنصراً ضرورياً لتدوير دفة العمل في أية جمعية بشرية كانت . وقياري القول انهم عرفوا أن الجزء الاعظم من اعمال البشر الاجتماعية هو بالضرورة غريزي اكثر منه عقلي ، وان الحكم على اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي وما فيها من الخطط ليس بطريقة المنطق الاستنتاجي من نسبة ما فيه هذه الاشكال والخطط من الوقع الحسن في الغرائز والشهوات

﴿التوحيد في الدين والشرك في السياسة﴾ الاديان الراقية في العالم موحدة تؤمن بمرجع

أخير واحد ولكن السياسة على العكس تميل الى الشرك في هذا العصر . وقد دلّت ابحاث العلماء في مجتمع القرون الوسطى على شأن بعض الاوضاع والجمعيات التي اعربت عن الشعور الشعبي العام في تلك الازمان من غير ان يكون للدولة دخل في احداثها او في تنظيمها مما يفيد ان الدولة عامل واحد فقط من جملة عوامل متعددة في ادارة دفة الاعمال السياسية الاجتماعية وان كانت في الواقع أهم عامل من هذا القبيل ، فلا عجب ان حلّ الشرك السياسي محلّ التوحيد في اذهان الباحثين ولم يعد للدولة تلك الوحدانية المستقلة المتصرفة في شؤون الخلق . بل صار لها شركاء من الجمعيات المتنوعة التي يؤلفها الافراد باختيارهم في داخل الدولة

وتأيدت هذه النظريات الاستقرائية التاريخية في عصرنا بما استجدّ من النقابات الصناعية والمتحدات التجارية وتأثيرها السياسي خصوصاً تلك المؤسسات الرأسمالية الكبرى بحيث رأت اوربا واميركا انها وان كانت قادرة على وضع القوانين المتعلقة بهذه المؤسسات وبادارتها الاّ انها متى بلغت درجة التنفيذ وجدت نفسها عاجزة لا قبل لها بمقاومتها مقاومة صحيحة وانزالها على حكمها . واكتفى المشترعون في العصر الفكتوري في انكلترا بأن ينظروا الى المتحدات التجارية انها نقابات تكرمت عليها الدولة بالتمتع بحق الوجود وان ليس لها من الحقوق الاّ ما جادت به عليها تفضلاً ، بيد ان هذه المتحدات اخذت تثبت استقلالها مدعية حق العمل باسم اعضائها ولو بالاضراب رغم الاوامر الرسمية

وتبدو للناظر في غضون السنوات الاخيرة التي سبقت الحرب الكبرى موجة من اضطراب للعمال اكتسحت العالم الصناعي وحملت بين طيّاتها عداء لفكرة الطريقة البرلمانية القديمة . وقد انبعثت هذه الموجة من نظريات ترمي الى بناء الحياة الاجتماعية المستجدة ليس على الاساس البرلماني القديم بل على المتحدات والنقابات وغيرها من الجمعيات الاقتصادية في جوهرها القائمة على فكرة العمل او الوظيفة باعتبارها مصدر الحياة في المجتمع ، فهذه الديمقراطية (الوظيفية) بما لها من البناء الاجتماعي المتنوع اخذت تتحدى النظرية الديمقراطية البرلمانية القديمة وما استندتْ من القول «صوت واحد للفرد الواحد» لان هذا « الصوت » يجب الاّ يعطى للفرد باعتباره فرداً بل للفرد باعتباره عاملاً منتجاً . ولم تمر هذه الموجة من غير ان تترك أثراً ظاهراً في خارج الحقل الاقتصادية الصناعية ، حتى ان رعماء الدين في ديار الغرب اخذوا يؤيدون استقلال الكنيسة وضرورة خروجها من وصاية الدولة كما تنحو كثير من الجامعات العلمية الكبرى هذا النحو ايضاً ، وينفخون فيها روحاً جديدة باعطاء الدين مقاماً في حياة المجتمع مستقلاً عن حياة الدولة ومعادلاً لها في مستواها ، وكانت هذه السنون حافلة بالخطط العملية والنظرية لبناء حياة المجتمع ليس على قاعدة « صوت واحد للفرد الواحد» بل على اعتبار الجمعية البشرية مركّباً متناسباً مؤلفاً من وظائف متنوعة كل منها يحتاج الى تنظيم خاص

(البقية في باب الاخبار العلمية)